الشيخ طاهر الجزائري

(١٨٥٢-١٩٢٠م=١٢٦٨-١٣٣٨هـ)

داعية نهضة وتحرر

obeikan.com

في فترة الظلام الفكري التي خيمت على الوطن العربي والإسلامي عندما ضعُفت الخلافة العثمانية، هب بعض الرجال يطالبون القافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود السير، وصرخوا بأعلى الصوت تاعين على الناس استسلامهم وركونهم، مطالبين بمحاربة الاستبداد ونفض تراب الجهل داعين إلى نهضة جديدة، وكان في مقدمة هؤلاء علماء الدين من مصر وسوريا.

ومن علماء الشام الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة وكرسوا كل حياتهم من أجلها «الشيخ طاهر الجزائري» المولود في دمشق ليلة الأربعاء ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٦٨ هـ، الموافق ١٨٥٢ م الذي ترك في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام أثرا، وفي كل ناحية من نواحي الإصلاح عملا فكان باعث نهضة وكان معلم جيل.

كانت رسالة «طاهر الجزائري» تحفيز العرب إلى الزهو بمجد آبائهم والعمل على إعادة ذلك المجد متسلحين بالعلم، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه ودفع إليه داعيا إلى العودة إلى اللغة العربية الفصحى والبيان العربي.

بشير الخير:

تميز «الشيخ طاهر» عن غيره من دعاة النهضة العربية بأنه كان يترك أثرا من الخير أينما حل، فكان مجلسه حيثما جلس مدرسة ولقاؤه أينما لقيته درس، يعلمك مسألة أو يرشدك إلى كتاب أو يلقنك خلقا من أخلاق الخير، كان يعلم بفعله لا بقوله كما يقول «علي طنطاوي» دعا إلى النظر في الكتب فلم يدع كتابا لم ينظر فيه، ودعا إلى التأليف فكان له من المؤلفات العديد، ودعا إلى حفظ الوقت وتنظيمه فلم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى الرجوع إلى أخلاق المسلمين الأوائل من الصراحة والصدق وترك الأباطيل فكانت حياته كلها كذلك.

وكاد ييأس المصلحون ولكن الشيخ لم ييأس ولم ير مستحيلا إيقاظ هؤلاء العرب الذين ناموا دهورا طوالا تحت أغطية الجهل والخمول، ولم يسلك طريق الطفرة فقد كان يرى أن الطفرة لا تأتي بخير، ولا الثورة فالثورة لا تشيد وإنما تبيد، بل عمد إلى

إزالة أسباب الداء، وإلى الترغيب في العلم وحث عليه ليحارب الجهل، ورد الناس إلى اللغة وتعريفهم فضلها ونشر أخبار السلف وتاريخ الفتوح لنفي الخمول.

التلاميذ والمريدون:

كان الجزائري يجمع - رله طائفة من أعلام الشباب هم صفوة خلطائه وعيون مريديه، فيشرح لهم الرأي ويبين لهم الطريف وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضا ويمهد لهم تمهيدا، وطائفة من الفتيان يُنشئهم على برنامجه ويسيرهم من حيث لا يشعرون في طريقه، وطائفة من العامة يقنع منهم بتقويم الأخلاق وإصلاح المجتمع، وكان يعطي كلا ما يناسبه كالطبيب الذي يحمل الدواء الشافي ويدور على المرضى فلا يعطي إلا بمقدار ولا يداوي إلا عن بينة من المرض، وكان أيضا يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك يأمل أن يوجههم إلى فضل الخير، عندما رأى الكتب المخطوطة معرضة للتلف والضياع لتفرقها في المساجد والزوايا فكر في جمعها في مدرسة الملك الظاهر التاريخية بدمشق، وقتها كان الشيخ مفتشا بالتعليم عارضه أعداء كل إصلاح واشترطوا موافقة الوالي، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ولم تنشأ دار الكتب الظاهرية.

واستفاد من صلته برجال الحكم الأتراك في افتتاح المدارس العصرية بعد أن كان التعليم قاصرا على الكتاتيب للصغار وحلقات المساجد للكبار، بل أنه افتتح أيضا مدارس البنات في هذا الوقت المبكر من بدايات القرن العشرين.

كان رجل تعليم من الطراز الأول، يرى أن يرتقي الإنسان إلى مدارج الكمال خطوة خطوة، وكان ينهي عن العنف ويدعو إلى التلطف في معاملة التلاميذ، فقد كان أشد خلق الله تشجيعا للناشئين وتنشيطا للعاملين، يحاول أن يوصل الناس جميعا إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعا إليه، وكان يسعى جاهدا أن يقربهم من المثل الأعلى ويسهل لهم بلوغه، وكان يقول لأصحابه: أن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له: إن هذا مستحيل بل علموه، فلعل اشتغاله هذه الأيام

الثلاثة بالنحو تحببه إليه فيقبل عليه، وكان كلما لاحظ علامات الفهم والذكاء في أحد أخذ بيده على طريق العلم وسهل له تحصيله وشجعه عليه، وقد اهتم بإدخال العلم إلى بيوت الأكابر.

قيمة العلم:

لم يكن مهتما فقط بالعلوم الدينية الشرعية، فبالرغم من أنه شيخ إلا أنه كان له ذهن رجل درس في أوروبا، يعرف قيمة العلوم الجديدة والعمل المنظم وأهمية الصحافة وأثرها.

قضى هذا الشيخ معظم وقته في القراءة والعلم والتأليف كان يقضي ساعات طوال يدرس ويؤلف، وكان أكثر مقامه في مدرسة عبد الله باشا بدمشق فإن كان مشغولا وجاء إليه أحد، أطل فقال له: «مشغول عد في وقت آخر» مهما كانت منزلة هذا الزائر، فإن دخل عليه أحد من حيث لا يشعر دفع إليه كتابا وقال خذ اقرأ هذا وتركه وعاد إلى ما كان فيه، ومن قوله في ذلك: «اشغلوهم قبل أن يشغلوكم».

لقد كان «الشيخ طاهر الجزائري» أديبًا باحثًا لغويًا عارفًا بالكتب ومؤلفيها وأماكن وجودها، شارك في أنواع العلوم المختلفة، وكان يجيد معظم اللغات الشرقية، وأصله من الجزائر، وُلِدَ في دمشق في ربيع الثاني من عام ألف ومائتين وثمانية وستين للهجرة الموافق عام ألف وثمانمائه واثنتين وخمسين ميلادية، تعلم في الكتاتيب ودرس في الجامع الأموي، وكان مُجدا في تحصيل العلوم الشرعية وغير الشرعية، وعُين مفتشا في دمشق، ثم اختير عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي ومديرا لدار الكتب الظاهرية.

عزة وإباء:

ولعلمه وبساطته وتفتح ذهنه تحلقت حوله طبقة من شيوخ دمشق والعلماء النابهين فيها، ولأنه كان داعية من دعاة التحرر ناصبه رجال الحكم العداء فلم يتراجع عن موقفه واضطر إلى الهجرة إلى مصر، حيث مارس هناك نشاطا ملحوظا

في الأعمال السياسية وفي الدعوة إلى التحرر، وترك القديم البالي والأخذ بأسباب النهضة من خلال الكتابة في الصحف والمجلات.

وفي مصر كانت حياته كلها عزة وإباء، فقد كان هذا الشيخ شديد الثقة بالنفس ولا يفرط أبدا في كرامته، وعند ما جاء إلى مصر لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته أخذ يبيع من كتبه ومن ذخائر المخطوطات التي أفنى حياته في اقتنائها، إذ كان يبيع الكتب حتى يعيش من ثمنها وحتى لا يضطر للاستدانة من أحد، حتى ولو كان أقرب الأصدقاء.

ومن فرط وطنيته وكراهيته للمستعمر كان يرفض الثمن الغالي الذي كانت تعرضه مكتبة المتحف البريطاني مقابل كتبه وأمثالها من المؤسسات الأجنبية، أو من الناس الذين يشترون الكتب للتجارة، وكان يذهب إلى دار الكتب المصرية يبيع كتبه بنصف الثمن ليبقى الكتاب في أيدي العرب ولا يخرج منها إلى أيدي الأجانب.

حاجة وكرامة:

وعندما نفدت كتبه وضاقت به الحال سأل «أحمد تيمور» باشا «الشيخ علي يوسف» صاحب المؤيد أن يحدث الخديوي سنة ١٩١٣م ليمنح «الشيخ طاهر الجزائري» مرتبا دائما أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء، ونجحت وساطة الشيخ «علي يوسف» وأمر الخديوي بمنح «الشيخ طاهر الجزائري» معاشاً، فغضب أشد الغضب وقال «للشيخ علي»: كأني بك قلت للخديوي: أن «الشيخ طاهرًا» أثنى عليك، نعم إني أثنيت عليه لتأييده مشروع زكي باشا في خدمة الكتب العربية ولكن ما الذي يضمن لك ألا يأتي الخديوي بضد هذا العمل الطيب يوما، وهنا يكون من واجبي أن أذمه وأنتقده فلماذا تسود وجهك بسببي وتكون في موقف لا تحسد عليه؟.

ثم قال بغضب: ومن أذن لك أن تدخل نفسك في خصوصيات أمري؟

فقال له «الشيخ علي يوسف»: نحن أصدقاء ولقد وجدتك تعاني وقد نفذ ما كان

لديك من كتب تبيعها وأنت ترفض الاستدانة من أحد.

فرد «الشيخ طاهر الجزائري» في شمم وإباء: «العالم الحر لا يقبل أبدا أن يعيش على عطايا أصحاب السلطان وإلا كان تابعا لهم لا يقوى أبدا على أن يرفع عينيه أمامهم أو ينتقد غير الصالح من أعمالهم، وأنا عالم حر صاحب رأي ولا أريد لنفسي أبدا أن أكون مجاملا لأحد، حتى ولو كان صاحب سلطان أو نفوذ».

قال «الشيخ علي يوسف» وماذا أفعل الآن هل ترد منحة الخديوي؟

قاله له «الشيخ طاهر»: اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقى من كتبه فكان الشيخ علي يوسف يقول بعد ذلك: «كنت أظن أن هذه الطبقة من العلماء قد انقرضت فلما رأيت «الشيخ طاهر» علمت أنه لا يزال علي وجه الأرض بقية منها».

ولما ضاقت به الحال عاد «الشيخ طاهر» إلى دمشق حيث اشتد به المرض الذي لم يمهله أكثر من أربعة أشهر، حيث توفي في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٨هـ الموافق ٥ من كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، ودُفِنَ في سفح جبل قاسيون(*).

(*) علي الطنطاوي، «رجال من التاريخ»، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٣٧٢.